

عبير عبد الفتاح أبو قطنة

النارنجة

وقصص أخرى



عبير عبد الفتاح أبو قطنة

نبلاء ناشرون وموزعون
الأردن - عمان

دار أسامة للنشر والتوزيع
الأردن - عمان

الناشر

دار أسامة للنشر و التوزيع

الأردن – عمان

- هاتف: 5658252 – 5658253
- فاكس: 5658254
- العنوان: العبدلي- مقابل البنك العربي

ص. ب: 141781

Email: darosama@orange.jo

www.darosama.net

نبلاء ناشرون وموزعون

الأردن – عمان- العبدلي

الطبعة الأولى

2014م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2013 /8/ 2853)

813.9

ابو قطنة، عبير عبد الفتاح

النارنجة وقصص أخرى/ عبير عبد الفتاح أبو قطنة.- عمان: دار أسامة للنشر والتوزيع، 2013.

(   ) ص.

ر.أ : (2853/ 8/ 2013)

الواصفات: /القصص العربية//العصر الحديث//

ISPN: 978-9957-22-576-6

الفهرس

الإهداء

إلى أحباب في القلب سكنوا تأبى أن تغادرهم الذكريات هم الذين لا تكفيهم الكلمات ولا القبل ولا مرج من الزهور بل يصلهم بإذنه دعائي اهدي ما استطاع أن يخطه قلمي تاتا وسيدو رحمهم الله.

إلى زوجي ورفيقي وصديقي وحبيبي الذي علمني السعي والصبر وكل الحب وأهداني كل ياسمين الشام وماء النيل ونخل الخليج.

إلى خالد وعبدالله أبنائي الذين أرى الدنيا بعيونهم وتضحك لي إن ابتسموا ادامكما الله وأبقاكما قمرين ينيران دروبي.

إلى أخي بشار رفيق طفولتي وكل الظروف أقول لا تكاد تخلو ذكرياتي من موقف إلا وكنت معي.

إلى أمهات لم يلدنني أقول كنت محظوظة بأن للجميع أما واحدة ولي أكثر من ذلك فشكرا على كل شيء ياعماتي الغاليات.

إلى أمي وخالتي سحر مصدر الأمل والتفاؤل الذي يشع.

والى جميع أحبتي اهدي قصصا نسجها قلبي وخطها قلمي.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على نبي البشر محمد بن عبد الله الصادق الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم.

يولد الإنسان نقيا طاهرا كطهر الملائكة ويوما بعد يوم وعاما بعد عام تشكله الخبرات والمواقف وتؤثر بشخصه القصص والأحداث التي تدور من حوله فتزده صلابة أو ليونة أو حساسية أو قسوة فيأتي من هنا اختلاف الشخصيات وردود أفعالها إزاء المواقف والأحداث.

وأنا منهم فلقد شكلت الظروف التي حولي شخصيتي حتى نسجت بعضا مما سمعت أو شاهدت أو حتى عشت فجاءت قصصي هذه التي كتبتها بصدق لأنني اعرف شخوصها حق المعرفة وعايشتهم قصصهم أو سمعتها منهم ففرحت لفرحهم وبكيت لبكائهم وحزنت لحزنهم لأنهم أعزاء على قلبي.

لذلك فما ورد في مجموعتي القصصية التي أقدمها للقارئ العربي هي في الواقع قصص حقيقية لا خيال في مضمونها ولا مبالغة في طرائق صياغتها.

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما قدمته في مجموعتي القصصية هذه، فإن كنت قد أصبت فهو من عند الله، وإن كنت قد أخطأت فهو من عندي وإلى لقاء آخر في مجموعة قصصية أخرى.

عبير أبو قطنة

النارنجة

تسللت خيوط الشمس من بين الغيوم وقت الظهيرة لتدخل شبابيك البيوت ولتحط على الأسطح وتداعب الزهور وتعانق مياه "بحرات البيوت الشامية وتسلم على ياسمينها الأبيض.

كانت يسرى إحدى ياسمينات ذلك البيت وشجرة النارنجة المتفتحة التي تنشر عبيرها بحبها وقلبها الكبير وبرها بوالديها وهكذا كان يدعوها والداها بنارنجة البيت وياسمينته. جهزت القهوة ووضعتها قرب البحرة ونادت أمها وأباها ليحتسيا سويا، جلس الجميع قرب البحرة مستمتعين بأشعة الشمس ودفئها في أواخر فصل الشتاء. قال الأب: هل جهزت الغرفة يا ابنتي فالشاب سيصل غدا ؟ ردت الأم وهل تعرفه يا أبو مصطفى ؟ فقال رافعا رأسه بعد أن ارتشف قليلا من القهوة: أنا لا اعرفه لكن أخي ابو سليم يعرف أهله، وقال إنهم أناس محترمون، ونحن في كل الأحوال سنختبره فإذا لم يعجبنا اعتذرنا عن تأجيره الغرفة، وإذا كان محترما وآدميا سنضعه على رؤوسنا. رفعت يسرى وجهها مخاطبة أمها وماذا سيدرس في الجامعة ؟ قال الأب لا اعرف وإنما أريد منك كالعادة ان تبتعدي عن الغرفة وقت وجوده فيها ولا تصعدي إلى السطح أبدا وكل

ما عليك فعله هو تنظيف غرفته بعد أن يخرج منها كل يوم، والله يرضى عليك لا تحادثيه أبدا فأنت تعرفين العادات والتقاليد وأيضا أنا لا أريد مشاكل مع أخوك مصطفى فأنت تعرفين طبعه الحاد. هزت يسرى رأسها وقالت حاضر يا أبي ورفعت غطاء رأسها الحريري الذي لم تعتد أن تخلعه حتى في البيت. حل المساء وعاد مصطفى إلى البيت، فأخذ يصرخ يسرى يسرى فجاءته على استعجال. . نعم يا أخي. حضري العشاء فردت ردها اليومي حاضر حاضر وما هي إلا دقائق وإذا به يصرخ من جديد الم تنته بعد فردت بصوتها المرتجف انتهيت انتهيت. وضعت يسرى العشاء وهمت بالجلوس نظر إليها أتريدين الجلوس معي اذهبي واعملي شاي " والله بنات آخر زمن" اعتادت يسرى على التجريح والصراخ اليومي من مصطفى واعتادت أذناها أيضا سماع " طولي بالك " من الأم. دخلت المطبخ بعينيها الدامعتين وقالت: رب عجل في زواجه لأخلص من شره وإزعاجه ونكده. كان مصطفى يفصله عن زواجه بابنة عمه بضعة شهور حتى ينتهي من تجميع مهرها.

طلع الصبح وأضاء بنوره شبابيك الشام، استيقظت يسرى كالمعتاد وبدأت بتنظيف البيت وشطف أرض الدار وسقاية شجرة الليمون والياسمينة وشجرة النارنج* وبعد انتهائها توجهت إلى المطبخ

---

* شجرة النارنج: هي شجرة عطرية تشبه ثمارها حب الليمون والبرتقال.

لتجهيز الفطور أعدته بنشاط ككل يوم. . ودق الباب ردت من خلفه قبل أن تفتح: مين ؟فأجاب أنا اسعد. رعد صوت مصطفى انتظري أنا سأفتح الباب انصري في للداخل، فتح مصطفى الباب وقال أهلا وسهلا تفضل أنت الطالب الذي ستسكن في بيتنا ؟ هز اسعد رأسه ربت مصطفى على كتفه وادخله. جلس الجميع في ارض الديار يتناولون طعام الفطور وبالطبع لم تكن يسرى موجودة على طاولة الطعام فلقد انتهى دورها في تحضير الطعام والطاولة وبالطبع لن يسمح لها مصطفى بالجلوس بوجود شاب غريب.

مرت الأيام سريعة وتزوج مصطفى وسلمت يسرى العهدة لزوجته فلقد تناصفتا بعد أن كان وابل الشتائم ينهال على يسرى وحدها وتوزع كل شيء بين الاثنتين في البداية فقط وكل يوم كانت يسرى تكتشف أن زوجته تشبهه أكثر فأكثر عادت يسرى بعد ذلك لتنال نصيب الأسد في كل شيء عمل البيت وخدمة الجميع كانت تعمل بصمت تنتظر المجهول وفرج رب العالمين.

تسببت زوجة أخيها لها بالضرب من مصطفى أكثر من مرة وفي كل مرة كانت أمها تقول لها اصبري وطوّلي بالك. مرض الأب واشتد مرضه نادى الأم ونادى مصطفى وجلست يسرى عند قدميه. . وصى مصطفى بأمه وأخته بان يحسن لهما وفاضت روحه إلى السماء.

مرت الأيام ثقيلة حزينة على قلب يسرى وكان روتينها اليومي لايتغير وسلطة أخيها وزوجته تزداد يوما بعد يوم والأم لا حول لها ولا قوة، كان اسعد ذلك الشاب المستأجر في بيتهم هو الوحيد الذي يعاملها بلطف وحنان بعد وفاة والدها كانت تراه كل يوم عند عودته من الجامعة من نافذة المطبخ كانت تعبث بكتبه وأوراقه وتشم ملابسه عندما تصعد لتنظف غرفته نعم لقد أحبته.. كانت تراه عندما تناوله طعامه وشايه وقهوته وكان الوحيد الذي يقول لها من قلبه شكرا. لم تكن أحلام يسرى تتجاوز بيتا مع إنسان يحترمها لتخدمه. كان ليسرى نصيب من اسمها ينعكس على كل من حولها لتسهل لهم حياتهم إلا هي ما كانت تجد أحدا ليعطيها ابسط حقوقها وخصوصا بعد موت والدها.

تكررت اللقاءات بين يسرى واسعد وخصوصا في غياب مصطفى الذي أصبح غيابه عن منزله شبه دائم فمصطفى لم تكفه طباعه السيئة ولكنه أصبح يشرب الخمر الآن ويعود مخمورا كل ليلة. وجدت يسرى في أسعد الملجأ والصدر الحنون كانت تصعد لغرفته تبادله بعض الكلمات أو النظرات خلسة عن أهلها، صعدت إليه سألته هل تريد شيئا قبل أن أنام ؟ اقترب منها ورفع وجهها بكفه فتلاقت عيناه بعينيها إن في عيونك حنانا ودفئا لا نهاية له. . ركضت يسرى مشت تعثرت ولكن كلماته أشعرتها بأنها أنثى ويمكن أن تتزوج حتى وان كانت في أواخر العشرينات وكان ذلك العمر يعتبر

إلى حد ما كبيرا آنذاك هرعت الى غرفتها أزاحت غطاء رأسها نظرت في مرآتها سألت نفسها: هل يمكن أن يتزوجني وأنا أكبره بأعوام ؟ ولماذا لا ؟ هو قال إنني جميلة.

مرت الأعوام الأربعة سريعة وكل يوم كان يمر كانت يسرى تخاف أكثر كانت لا تريده أن ينهي دراسته حتى لا يغادر منزلها وكانت تريده ان ينهي دراسته فربما يتزوجها، تلاطمتها مشاعر وأحاسيس. قاربت السنة الرابعة على الانتهاء وكان اسعد أمل يسرى الوحيد في هذه الحياة البائسة من مصطفى وزوجته التي حولت يسرى الى عبدة عندها وخصوصا بعد مرض الأم فلقد مسكت جميع الخيوط وزمام الأمور في المنزل بعد أن ضاقت الحال بمصطفى جراء شربه للخمر وسهره ليله الطويل ونومه نهاره.

الدكان باب الرزق الذي تركه أبوهم أهمله مصطفى وأصبح من خسارة إلى خسارة كانت زوجته تهدده بترك الأولاد والمنزل وكان مصطفى متمسكا بها أو بالنقود التي تجنيها فلقد كانت تخيط الملابس فأصبح ما تكسبه مصدر الرزق الوحيد في البيت فكيف له أن يكسر لها كلمة ؟؟؟

كانت زوجة مصطفى تكره يسرى وكانت يوما بعد يوم تريد المنزل لها وحدها بلا أم مصطفى وأخته كانت تتسبب لها بالضرب والشتم على لا شيء كل يوم تقريبا وكان مصطفى بالطبع

مطيعاً لراعية رزقه والمنفقة على بيته. همست زوجته في أذنه في احد الأيام مصطفى حبيبي لماذا لا تزوج يسرى ؟ فضحك باستهزاء ومن سيتزوج عجوزا ؟ قالت أنا عندي عريس أخبرتني به إحدى زبائني التي تأتي للخياطة عمره ستون عاما وأرمل ويريد من يخدمه فرد مصطفى وأمي من يخدمها ؟ قالت أمك ما شاء الله لا تريد من يخدمها فصحتها لا تزال فيها المهم يجب أن نوافق على العريس قبل أن يفوت القطار فضحك مصطفى وقال تقصدين قبل أن يموت القطار وضحكا سويا وأطفئت أنوار الغرفة.

جهزت يسرى الإفطار الصباحي ودقت على باب غرفة مصطفى بعد أن أجلست أمها على مائدة الفطور وبعد أن أرسلت بابنة مصطفى الكبيرة الى المدرسة. فتح الغرفة ونهرها قائلا ألا تعرفين أن تعملي بهدوء ألا تعرفين أن زوجتي لا تستيقظ الآن؟ اعتذرت يسرى وتأسفت وجلست بجانب أمها ، بعد أن ارتشف مصطفى رشفة من كأس الشاي ووضع لقمة كبيرة في فمه قال سيحضر اليوم جماعة من الناس لزيارتكم أمي حتى يخطبوا يسرى جهزي نفسك لان هذه هي فرصتك الأولى والأخيرة للزواج وضحك مستهزئا سألته عنهم فرد على عجالة ودخل إلى غرفته مرة أخرى. بكت يسرى كثيرا بعد أن علمت عمر العريس الذي يكبر والدتها وبعد أن تحطم أملها وحلمها الوحيد بأسعد.

حاولت الأم تهدئتها لا لشيء إلا لأنها تعرف أن مصطفى لا يستطيع أن يقف في وجهه احد ويقول له لا. حل المساء ثقيلا وصعدت يسرى إلى اسعد بعينيها الدامعتين وأخبرته بما حصل لها فوعدها بحل مشكلتها.

في صباح اليوم التالي توجه اسعد إلى دكان مصطفى فلم يجده فأخبر الصبي الذي يعمل عنده انه سيعاود الحضور. رجع لمصطفى عصرا قال دون ارتباك اوتردد أستاذ مصطفى يشرفني أن اطلب يد أختك المصون يسرى على سنة الله ورسوله فاستغرب مصطفى ولكنه لا يستطيع أن يوافق أو يرفض قبل أن يسأل زوجته فرد مصطفى: يشرفني طلبك ولكن دعني أفكر وسأرد عليك إن شاء الله.

أمر مصطفى الصبي بإغلاق الدكان وهرع مسرعا إلى البيت دخل غرفته ونادى زوجته وأغلق الباب قائلا أتدرين من طلب يد يسرى اليوم لعله لا يخطر ببالك ؟فقالت بعد أن فركت كفيها من يا ترى ؟بأسلوبها الاستهزائي الذي ترافق مع نبرة صوتها كلما ذكر اسم يسرى فرد مسرعا اسعد. صرخت من ؟قال اخفضي صوتك اسعد الشاب الذي يسكن عندنا. فردت ولماذا وكيف ؟ رفعت حاجبيها وقالت اسعد أو غيره المهم أن نخلص منها ، واسعد يبقى أفضل من العريس العجوز على الأقل نضمن ألا تعود إلينا أرملة بعد

شهر إلى سنة على الأكثر فنكون بعانس ونصبح بأرملة وضحكا سويا.

لم تنم زوجة مصطفى تلك الليلة فلقد أشعلت الغيرة قلبها فكيف ليسرى أن تتزوج شابا جامعيا وسيما ولكنها بعد تفكير طويل بكلام مصطفى وصلت إلى نتيجة خلاصها أن الشيء المهم هو أن تتخلص من وجود يسرى في البيت.

تزوجت يسرى وكان عرسها بسيطاً وغير مكلف للعريس حتى أنها ارتدت فستان زوجة مصطفى الأبيض المصْفَر وكانت يسرى سعيدة بذلك لأن همها هو الزواج من أسعد الذي فرح بزواجه منها، وأخذها وسافر معها إلى بلاده.

كانت يسرى تشكل لأسعد الأم والزوجة. مرت أعوام الزواج عاما بعد عام ويوما بعد يوم ولم ترزق يسرى واسعد بطفل وتمسك اسعد بيسرى حتى بعد أن عرف أن لديها مشكلة تمنعها من الإنجاب. كانت يسرى الخادمة والأم لأسعد فلقد ضاق عليها عالمها الكبير وأصبح لها عالم خاص اسمه اسعد. أنهى اسعد دراسته الجامعية العليا فحاز على شهادة الدكتوراه.

لم تنقطع يسرى عن أهلها فلقد كانت تزورهم دائما وترسل لهم من النقود ما تستطيع أن ترسله فلمصطفى الآن أربع بنات وأمها

يزداد مرضها يوما بعد يوم. وكانت يسرى تحب بنات مصطفى حبا شديدا ولعل حرمانها وعدم قدرتها على الإنجاب ساعدا في ذلك أحبت أبنته الكبيرة ريم أكثر من أخواتها لربما لأنها اهتمت بها لوقت أكثر، فلقد اعتمدت زوجة مصطفى على يسرى قبل زواجها كثيرا وكانت ريم مسؤولية يسرى في كل شيء، حتى أن ريم كانت تنادي عمتها يسرى ماما .

كانت يسرى تحضر ريم لتقيم عندها بالأشهر طبعا لم يكن مصطفى أو زوجته يمانعان. كبرت ريم التي كانت تتباهى عمتها بها بين جاراتها وصديقاتها وتشتري لها أحلى الملابس حتى أنها كانت ترسلها مع زوجها اسعد إلى العمل حتى لا تمل في المنزل. كانت ريم تقضي في بيت عمتها أحلى الأوقات وكان اسعد يدربها على الكمبيوتر.

أصرت يسرى على تسجيل ريم في مدرسة بجانب بيتها حتى تشرف عليها في المرحلة الثانوية. أقنعت أخاها مصطفى وأخبرته بأنها ستكون مسئولة عن تدريسها في الجامعة ووافق مصطفى طبعا.

تفتحت ريم بمنزل عمتها يسرى وغدت جزءا من فؤاد يسرى وزوجها فما عاد اسعد يستطيع الحياة بدونها أو السهر من غيرها، فلقد كبرت يسرى وما عاد السهر يناسبها وحلت مكانها ريم وتعبت

يسرى من جولات التسوق فكانت ريم البديل مع اسعد. ذبلت يسرى وتفتحت ريم.

أنهت ريم دراستها الثانوية وعادت إلى بيتها فلقد اشتاقت لامها وأبيها. جلس اسعد وطلب من يسرى تحضير القهوة. أحضرتها فطلب إليها الجلوس نظرت في وجهه وقالت عندك كلام يا اسعد فرد: نعم، وامسك وجهها بكفيه وقال لقد كبرت يا يسرى فلم اعد أرى جمال عينيك من النظارة، لم تشح يسرى بوجهها عنه هذه المرة بل حدقت بعيونه ماذا تقصد ؟ قال: يسرى أريد أن أتزوج. سقط فنجان القهوة من بين يديها أحست أنها غائبة عن الوعي للحظة وأحست أنها تحب مصطفى للحظة أو أنها تكرهه ما عادت يسرى تحس بشيء أو تشعر حولها غابت عن الوعي.

استيقظت يسرى نظرت حولها استغربت أين هي وجدت نفسها في المستشفى وكان اسعد جالسا على أريكة في غرفتها نظر إليها قال: حمدا لله على سلامتك سألت ماذا أصابني ؟ رد: لا شيء ارتفع ضغط دمك قليلا وغبت عن الوعي. لبرهة لم تسمع كلامه تذكرت كلام الأمس أمسكت وجهه بكفيها قالت: لماذا يا اسعد الم تقل لي أنني حياتك الم تعدني بأن تبقى معي ؟ ظل اسعد مطأطأ الرأس لا يعرف بما يجيب، قال لها اهدئي الآن وسنتحدث فيما بعد.

خرجت يسرى من المستشفى بعد أيام عادت لا تقوى على الحراك لا لشيء أو الم في جسمها بل نار مشتعلة في روحها. استجمعت قواها وبعد أيام نادت من على سريرها اسعد، حضر عندها قالت لقد فكرت في الموضوع، إن من حقك أن تكون أبا سأبحث لك عن عروس مناسبة حتى تتزوجها وسنكون سويا سأربي أولادك لأنهم أولادي أنا وأنت، من غير المنطق أن أكون أنانية أو هذا جزاؤك لأنك تحبني! واقتربت منه وعانقته وعانقها وابتعد مسرعا.

بدأت يسرى بالسؤال والبحث لأسعد عن عروس ورأت عدة بنات وكانت في كل مرة ترجع وتخبره بصفات العروس التي رأتها وكان اسعد يرفض متحججا بأي شيء حتى أتى ذلك اليوم الذي لم تتوقعه يسرى في حياتها، جهزت العشاء فتناولاه سويا ثم قشرت المكسرات وجهزتها حتى يتناولها اسعد جاهزة دون تعب أو عناء وأحضرت الشاي، وقالت: اسعد لقد وجدت لك العروس التي تبحث عنها تبلغ من العمر 27 عاما وأهلها أناس محترمون و. .. . قاطعها اسعد إن العروس التي تناسبني وأناسبها هي ابنة أخيك ريم، ولا أقبل أن أتزوج غيرها، تابعت كلامها وكأنها لم تسمع ما قال فزاد من نبرة صوته وقال قلت لك أريد أن أتزوج ريم بنت أخيك مصطفى، ففتحت عينيها وصرخت ماذا وكيف ذلك لا لا يجوز !

اقترب منها وقال ستكونين أنت الأم لي ولها وسأضعك على رأسي و.. .. . والدموع تملأ عينيها لعلك تمزح اسعد أنا أعرفك. قال أنا جاد فيما أقول ولقد سافرت إلى مصطفى واتفقت معه على كل شيء فتمتمت اتفقت على ماذا ؟ على أن أطلقك وأتزوج ريم وأخيرك بين البقاء هنا أو العودة لبيت مصطفى ولقد بدأت إجراءات الطلاق.

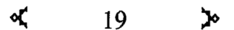
حاولت المسكينة أن تلم شعث أحزانها وآلامها ، فجمعت ثيابها وهي تنظر في كل قطعة من هذه الثياب لأن كل منها تشكل ذكرى معينة مع أسعد ، وغادرت منزله ، وعادت إلى بيت والدها ، حيث أخوها مصطفى الذي ما لبث أن مات بعد ان ترك لها بناته لتقوم على تربيتهن بالإضافة إلى العناية بأمها المريضة ، علمت بعد ذلك أن أسعد تزوج من ريم وأنجبا طفلة.

هذه هي الأقدار....

عائدة اليك

ولد الليل خيوط الفجر الأولى فصرخ الصبح الأبيض بأشعته كالطفل حين يخرج من أحشاء أمه. فتحت كاميليا عينيها المتعبتين وسألت ماذا أنجبت؟؟فأجابتها أمها بجمودها المعهود وملامحها الثابتة المتحجرة في كل المواقف، أنجبت بنتاً لكنها ماتت. فصرخت كاميليا ولكن كيف ولماذا فردت أمها: ولدت ميتة. قالت كاميليا بكل ألم أريد أن أراها، فات الأوان فلقد دفنت. فنزلت دمعه محرقة من عيني كاميليا التي لم تعرف النوم طوال الليل وأشاحت بوجهها نحو النافذة ناظرة في السماء علها ترى روح ابنتها التي حرمت من رؤيتها. وبعد عده أيام خرجت كاميليا من المشفى منهكة جسدا وروحا وسألت أمها الم يسأل عني. فرد أخاها لا ولقد رحل وترك لك ورقه الطلاق وان عاد سأقتله أعدك بذلك. ردت كاميليا ولكن كيف له.. . إن ياسين.. . فقاطعها أخوها لا تذكري اسمه مرة أخرى في هذا البيت وانسي أمره ماحييتي قلت لك أن تتزوجي احد أبناء بلدتنا ولكنك رفضت فادفعي ثمن عنادك.

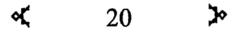
قطع ياسين البحر حاملا معه تلك اللفافة الحريرية البيضاء عائدا إلى فلسطين يرفعها حينا ويهزها حينا آخر ويخض لها زجاجة



الحليب اليتيمة حتى تسكت صرخاتها الضعيفة كان بكاؤها يحزنه ويزعجه حتى وصل إلى قريته فدخل بتلك الهدية الملائكية مجهولة القدر ورمى بها بحجر أمه قائلا: هذه ابنتي لم يعد لها سواك يا أمي أنا راحل من جديد لأنني لا استحق أن أكون بينكم ومع ابنتي التي ستخجل مني في يوم من الأيام لأجلها يا أمي وليس لأجلي ربيها واعتني بها وسميها عائدة.

غادر ياسين- بعد قدومه مسلما أمانة ستحمل اسمه ما بقيت حية- ذاهبا إلى المجهول. مرت أيام الشتاء باردة قاسية والجدة تضم عائدة إلى صدرها لتقيها سهام الهواء البارد غنت لها أغاني الطفولة وتراتيل كل الصلوات وأهازيج الفلاحين حتى تنام ويوما بعد يوم وعاما بعد عام كبرت عائدة ودخلت المدرسة بضفيرتيها وسترتها الزرقاء حاملة على كتفيها حقيبتها التي حاكتها الجدة من ثوبها القديم حاملة في قلبها حبا وودا عظيما لتلك العجوز الأم. ومضت السنون مسرعة حتى أنهت عائدة المدرسة منتظرة نتيجة الثانوية العامة قلقة ولكن ليس كقلق تلك الفلاحة التي تعبت وسهرت وتباهت بعائدة أمام نساء القرية متحدثه عن ادبها وتفوقها في المدرسة.

تمسمرت الجدة في بيت المختار أبو صبحي أمام المذياع منتظرة إعلان نتائج الثانوية جالسة على فرش من لهب ونار إلى أن زغرد المذياع ((عائدة ياسين)) فقفزت من مكانها لا تعرف كيف



أوصلتها خطاها للبيت قائلة: عائدة لقد نجحت يا حبيبتي وضمتها لصدرها فبكيا سويا كما اعتادا أن يعيشا سويا. شارف فصل الصيف على الانتهاء وبدأ فصل الخريف الأصفر يعري الأشجار ويسقط الأوراق عن أمها فتطير العصافير هاجرة أعشاشها المكشوفة ومرضت الجدة فحزنت عليها عائده حزنا لا تصفه مشاعر. عائدة: جدتي ماذا افعل لك اخبريني يا حبيبة الفؤاد. الجدة: لا شيء يا صغيرتي فقط أريد منك أن تدفئي نفسك جيدا حتى لا تبردي فهواء الليل قارص. وجاء اليوم الذي خافته عائدة طيلة أيام عمرها وتجمعت كل نساء القرية حول فراش الجدة أم ياسين فهذه باكية وتلك تهز الرأس وعائدة جالسة عند أقدام جدتها ممسكة بها متذكرة أيام طفولتها حين كانت تمسك أذيال ثوب جدتها حتى لا تذهب إلى أي مكان ولكن الأمر مختلف الآن ومسك الأقدام هذه المرة لا يمنع من الرحيل. جدتي وبكت عائدة فأشارت لها جدتها بالاقتراب من وجهها فاقتربت عائدة وأمسكت بيديها ،دنت برأسها فصوت الجدة يكاد يكون غير مسموع. اسمعي يا حبيبتي الحياة والموت بيد الله وأنا إن كان يؤلمني شيء فما هو إلا فراقك لأنك قطعة مني حميتها ورعيتها وربيتها فاعتني بنفسك جيدا ، لك الله أؤكلك إليه وهو خير الحافظين وفي هذا الصندوق ورقة كتبتها لك عند المختار قبل 17 عاما _اشهد أن لا اله إلا الله.. وما كادت الجدة تنهي هذه الكلمات حتى فاضت روحها معانقة روح عائدة صاعدة إلى السماء. مرت أيام

الشتاء باردة معتمه قاسية حزينة وعائدة لا تكاد تفارق المنزل تزورها نساء القرية من حين لآخر يواسينها ويخففن عنها.

فتحت عائدة الصندوق وقرأت الورقة التي فيها والتي مفادها أن أمها ليست ميتة وان اسمها كاميليا قدري وان مصيرها مجهول وأخبارها منقطعة. لم تأخذ عائدة الموضوع على محمل الجد في البداية لأنها لا تعرف من أين تبدأ البحث، مرت الأيام ككل الأيام مسرعة تغلف ساعاتها أوراق النسيان وتلهب في القلوب ذكريات الأحبة.

تزوجت عائدة احد شبان القرية وسافرت معه إلى مكان عمله وعام بعد عام وبعد أن أصبحت عائدة أمّاً تأججت في نفسها مشاعر الحنين وكل يوم كان يراودها شعور ورغبة للبحث عن تلك المرأة التي وهبتها الحياة فقررت البدء بالبحث ولكن من أين تبدأ؟

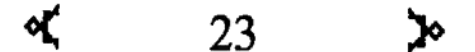
اعتادت عائدة أن تحتسي الشاي وزوجها مساء بعد عناء النهار الطويل ومتابعة شؤون أطفالها الثلاثة فبينما هي جالسة مع زوجها تنظر إلى التلفاز شاهدت برنامج (رغم سنوات البعد) وهذا البرنامج مختص بجمع الأشخاص الذين فرق شملهم الدهر، ساور عائدة شعور ورغبه بالمحاولة وفعلا اتصلت وأعطت المعلومات التي تعرفها عن أمها ولم تكن متأكدة تماما من أن ذلك يجدي نفعا إلا أنها كانت على

يقين ان الله يجمع الأشتات ويحيي العظام وهي رميم. انقضى أكثر من أسبوعين منذ أن اتصلت بالبرنامج.

وفي إحدى الأيام وبينما هي جالسه تحتسي فنجان القهوة في شرفة شقتها دق جرس الهاتف فردت من المتكلم فقال لها معك برنامج رغم سنوات البعد هل أنت السيدة عائدة فأجابت بهز رأسها ناسية أنها تتحدث على الهاتف ولكنها أدركت ذلك وقالت نعم نعم فأجابها هناك شخص طلب رقم هاتفك وقال انه يعرف معلومات عن أمك وعلى أية حال فانه سيتصل بك بعد دقائق يقول انه خالك ولقد تأكدنا نحن بدورنا من تطابق اسمه مع اسم السيدة التي أخبرتنا به هل أنت معي سيدة كاميليا؟ فردت نعم معك بانتظار الاتصال. أغلقت عائدة سماعه الهاتف وقد راودتها الكثير من الأفكار وتلاطمت بداخلها المشاعر لم تعد تعي الأحداث التي تدور وما هي إلا بضع دقائق حتى رن جرس الهاتف فتمسمرت عائدة في مكانها وارتجفت يدها قبل أن ترفع سماعة الهاتف وقالت ألو نعم، اسعد الله أوقاتك رد الطرف الآخر هل أنت السيدة عائدة.

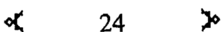
عائدة: نعم

أنا خالك حمدي اخو أمك كاميليا كيف حالك؟ وما كاد ينهي هذه الكلمات حتى انفجر بالبكاء. وبعد أن هدأ قليلا تحدث معها واخبرها بعنوان أمها المتزوجة في مدينة قريبة لمدينتها، لم تشعر



عائدة بأي شعور تجاه خالها المزعوم إلا أن شعورا آخر شدها إلى البلد التي تسكنه أمها. وصلت عائدة إلى العنوان، كانت الساعة تقارب الثامنة صباحا قرعت الجرس فخرجت امرأة عمرها لا يتجاوز الأربعين عاما حبست عائدة أنفاسها وقالت هل هذا منزل السيدة كاميليا فأجابتها المرأة بصوت ناعس ونظرات نائمة منزل السيدة كاميليا هو الشقة المقابلة. شكرا قالت عائدة وأدارت برأسها للشقة المقابلة. قرعت الجرس ويدها ترتجف فلم يفتح لها احد مرتان ثلاث مرات وآخذت تدق على الباب وأخذت الدقات بالتسارع فعادت السيدة من الشقة المقابلة وفتحت باب شقتها مرة أخرى قائلة بانزعاج: السيدة كاميليا غير موجودة على ما أظن، فعملها ليلي بالمشفى اذهبي وعودي إليها بعد الظهر وما كادت المرأة أن تغلق الباب حتى فتحته عائدة قائلة أرجوك أنا قادمة من مكان بعيد ولا اعرف احد هنا فهل أستطيع انتظارها عندك؟نظرت المرأة إلى الساعة المعلقة على الحائط والى وجه عائدة الهادئ وترددت قليلا ثم قالت تفضلي فبعد اقل من نصف ساعة ستصل كاميليا. أحضرت المرأة القهوة ولكن عائدة كانت متوترة منتظرة المجهول تهز رجلها وتفرك يديها بتوتر ملحوظ فلقد اقتربت ساعة اللقاء. سألت الجارة عائدة من تكون فأجابتها.

تعجبت المرأة كثيرا وكل ذلك كان على عجل فعائدة تجمدت عندها المشاعر وتوقف عندها الوقت والجارة مصدومة في



مكانها وعيناها مغرورقة بالدموع قالت الجارة تفضلي القهوة وربتت عل كتف عائدة، شكرا ردت عائدة فما كادتا يرتشفن قليلا حتى سمع صوت مفتاح السيدة كاميليا فهرعت الجارة إلى الباب وقالت وصلت فتحت بابها ونادت كمي كمي. لم تستطع عائدة النهوض أو حتى الحراك فردت كاميليا : صباح الخير متعبه جدا ماذا تريدين؟ فقالت لها ادخلي فهناك ضيفة تود رؤيتك. دخلت كاميليا ووقفت عائدة مدت كاميليا يدها مصافحة مرحبا تجمدت عائدة في مكانها ولم تستطع الرد فسألتها الجارة هل تعرفين هذه الفتاة فهزت رأسها قائلة لا ولكني أشعر بأنها مألوفة لي. وعلى عجل ودونما أية مقدمات ولا تمهيد قالت الجارة هذه ابنتك عائدة تغيرت ملامح وجهه كاميليا وضحكت وقالت كيف ومنذ متى أنت تمزحين وانا متعبة من هذه؟ فقالت الجارة هذه ابنتك اقسم بالله. كل هذا وعائدة متجمدة في مكانها فنظرت لامها وقالت بعد ان استجمعت قواها أنا ابنتك عائده بنت ياسين التي أخبروك أنها ماتت منذ 27 سنة. توقف وتجمد كل شيء في كاميليا إلا قلبها الذي اخبرها أنها ابنتها وخانتها قواها ووعيها فسقطت مغشيا عليها وبعد أن استيقظت تفجر بركان الحنين واشتعلت نيران عمرها سنيناً باتت لأجل طويل تحت الرماد وتعانقتا عناق الطفل حين يعود لأحضان أمه. أخبرت كاميليا عائدة بالقصة وإنها لم تكن تعرف أنها على قيد الحياة وأنها لو عرفت ذلك لبحثت

عنها في كل الدنيا وكشفت كاميليا عن يدها التي وشم عليها تاريخ ميلاد عائدة تاريخ امومة كاميليا الأول.

تعب المشوار

اغدا القاك ياخوف فؤادي من غد

يالشوقي واحتراقي في انتظار الموعد

آه كم اخشى غدي هذا وارجوه اقترابا

انت ياجنة حبي واشتياقي وجنوني

انت ياقبلة روحي وانطلاقي وشجوني

كم اناديك وفي لحني حنين ودعاء

لميس لميس اغلقي الراديو وتعالي ساعديني في تحضير العشاء لاخوتك فهم على وصول رفعت لميس صوت الاغنية وكأنها صماء وكأن كلمات اختها لم تطرق باب اذنها وتابعت سيرها على سطح بيتهم المتواضع ناظرة الى الطريق تارة والى السماء تارة اخرى منتظرة لا شيء أو لربما فارسها على حصانه الابيض لينرجل ويأخذها.

قاطعت احلامها اختها ممسكة بشعرها ألم تسمعي صوتي لقد ناديت عليك الف مرة، صرخت لميس من شدة الالم آي آي اتركي شعري امسكت اختها بالراديو صارخه واقسم بالله ان لم

تنزلي سأقوم بكسره وكسر رأسك بعدها واخبار حسن لتأكلي نصيبك من العشاء كفوفا واهانات هيا.

استسلمت لميس للامر ونزلت مع اختها، تناولت الأسرة العشاء وما هي الا لحظات حتى بدأ أنف لميس ينزف هذا النزيف الذي اعتادت عليه العائلة الا انه وفي هذه المرة كان اشد ناولتها امها المناديل هرعت اخواتها لوضع الثلج ولكن بلا فائدة.

لوّنت الدماء قميصها الابيض قال حسن هيا هيا الى المستشفى هذه المرة مختلفة رافقت لميس والدتها واختها وحسن بالطبع وصلوا المستشفى دخلت الطوارئ كالعادة وهي خائفه لانهم وفي كل مرة يدخلون الفتلة في أنفها لتنظيفه وتتعالى صرخاتها وبكاؤها هي اخبرتني بذلك، ولكنها تابعت قصتها قائلة: هذه المرة كانت مختلفة مختلفة تماما.

وضعت كيس الشيبس نفضت يدي للتخلص من حبيبات البطاطس واكملت دخلت كالعادة بخوفي الشديد نمت على السرير واذ _وابتسمت عيناها_ بالطبيب يحضر وضع يده تحت راسي وبكل حنان ما عهدته منذ ان توفي والدي نظرت الى عينيه كانت لا ككل العيون التي اعرفها نسيت وقتها ألمي ودمي وامي وحسن ابتسمت.

حقيقه وقتها لم ادرك ولم اشعر انه انتهى من تنظيف انفي وايقاف النزيف بالفتلات بل ان قلبي لا ادري لربما توقف عن الخفقان

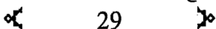
او تسارعت نبضاته مشاعر لا اعرف وصفها اجتاحتني. شكرته أمي وحسن قلت انا: اتمنى لو ان كل المرات مثل هذة المرة رمقني حسن بنظرة تعني اخرسي اكملت فأنا لم اشعر بالالم ابدا ضحك وقال: سلامتك ثم خرج من الغرفة.

احسست ان قلبي خرج خلفه وعدت متمنية ان انزف، ان اموت، المهم ان أراه مرة اخرى. بقيت لميس اياما واياما شاردة عن شرح معلماتها فجلست جانبها بجانبها في الفرصة قلت لها انه الحب لمعت عيناها العسليتان وتنهدت. انتهى يومنا الدراسي نفضنا مرايلنا الخضراء عدلنا شعرنا وخرجنا من المدرسة دخلنا دكانة ابو محمود كالعادة اشترينا (اسكيمو أحمر)* وتابعنا الطريق لم يكن لدى لميس الكثير لتقوله لي عن هذا الطبيب حتى انها لا تعرف اسمه وعلى الرغم من ذلك لم تتوقف عن الحديث عنه علما بأنني قد سمعت نفس الكلام عنه أكثر من ألف مرة حتى انني صرت اكمل لها الجمل وهي تضحك افترقنا كل عند بيتها.

وفي نفس اليوم اصاب لميس نزيف مرة اخرى دعت الله ان يكون مناوبا حتى تراة وفعلا حصل.

دخلت المستشفى هذه المره على امل اللقاء لانه وكما قالت لي رأيت ملاكا. حضر الطبيب عينه اتاني سألني عن أخباري تلعثمت

* اسكيمو احمر: نوع من أنواع المثلجات.



في الحديث كانت امي معي هذة المرة خرجت وتركتني سألني عن اسمي فاخبرته ترددت بسؤاله عن اسمه لكنه كان معلقا على صدره هذة المرة بوضوح ربيع سالم تحدثنا وتبادلنا ارقام الهواتف من هنا ابتدأ المشوار.

انهينا المدرسة وكانت بذرة حب لميس قد اصبحت نبتة تحدثوا طويلا على الهواتف تقابلوا اكثر من مرة. الى ان قرر ربيع ان يطلب يدها من اهلها رفض حسن متحججا انها لا تزال في المدرسة وان ربيع يتابع دراسته العليا أيضا وأوضاعه المادية لا تحتمل زواجه الان.

لم يمنعهما ذلك بل اشعل نيران الحب، تقابلا تحدثا أحبته حتى الثماله اتفقا على ان تنهي مدرستها وشجعته على السفر واكمال دراسته بحثت له في الانترنت وباعت له اسوارة ليشتري تذكرة السفر.

سافر ربيع انهينا الثانوية كان مجموع لميس يؤهلها لدخول الجامعه عارض حسن طبعا اصرت لميس، بكت وافق حسن بألف شرط طبعا. عاد ربيع ليطلب يدها مرة اخرى

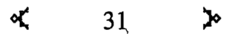
رفض حسن متعذرا بأنها لم تكمل دراستها الجامعية. تقابلا بعيونهما الحزينه وعدته بأن لا تكون الا له ووعدها ان لا تكون الا هي انثاة.



أكملت ليس سنوات دراستها الجامعية عاد ربيع وعاود طلب يدها وافق حسن فلا حجة له الان أمام أمه وأخوته وأخواته. تزوجا وسافرا كانت حياتهما دافئة هادئة هي تعمل وهو يعمل ولكن شيئا ما يحدث لربيع يغيره يوما بعد يوم أصبح يطيل السهر خارج البيت ويعود في اغلب اللليالي مسكورا مخمورا. قلّت غيرته علي وتابعت كان يعطيني كل شيء ولكنه لايغار حاولت استفزازه وإثارة غيرته باكثر من طريقة لباسي مكياجي صدقاتي ولكن لا حياة لمن تنادي حتى انه كان يقول لي انه لا يمانع ان أسافر للسياحة وحدي على اي دولة ان أردت ذلك.

توترت العلاقه بيني وبينه رزقني الله بطفلة كان ابا حنونا ولكنه شديد الانشغال اصبح ربيع حياتي جسدا بلا روح زاد نفوذه في عمله وقلت قيمتي وحبي عنده حتى أصبحت لا شيء.

سألت نفسي هل انا السبب هل انا مقصرة دعوته للعشاء بكيت وقلت له اريدك ربيع الذي احببته اين انت مني؟ ضمني بقوة وقال اريد ان اخبرك شيئا واشاح بوجهه عني قائلا هناك امرأة أخرى. اختلطت دموي بابتسامه قلت اي اخرى ؟قال لقد لقد عاد اليه كبريائة الذي صرت أراه فيه حديثا كنت أراه مع الاخرين وليس معي انا اكمل اريد الزواج من أخرى.



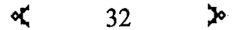
ولكن كيف ؟ولماذا لماذا ؟هل قصرت معك في شيء مازلنا في اول طريق الزواج لماذا وضربت الحائط بما كان امامي لا بل كسرت الكثير من أدوات البيت حاول امساكي الى ان انهرت تماما سقطت على الزجاج ادميت قدماي رفضت ا ن يقترب مني نمت حيث أنا.

وأتى الصباح وياليته لم يفعل فالنوم موت والموت ارحم ارتديت ما وصلت اليه يدي واخذت مفتاح سيارتي حتى ابنتي لم اطمئن عليها قبل خروجي نادتني الخادمة لم التفت لشيء ادرت مفتاح التشغيل وانطلقت كالسكارى الذين لا يعون اصطدمت بشجرة.

بعد ايام من غيبوبتي التي دعوت الله اني ما استيقظت منها فتحت عيني كان ربيع ممسكا بيدي قبلها وقال حمدلله على سلامتك اغمضت عيني مرة اخرى تمنيت ان اكون قد فقدت الذاكرة.

مرت الايام وخرجت من المستشفى اتاني ربيع ضمني اليه تمنيت وقتها ان يقول لي انه اخطأ او انها نزوة ولكن قال لي شيئا اخر قال لي انت سيدة النساء وانا اريدك اما لجميع اطفالي ولكني التزمت معها بكلمة.

ضحكت بسخرية التزمت معها بكلمة لماذا لم تلزمك كلاماتك معي حين قلت لي لا انثى لي سواك اين الحب؟اين الانتظار؟



اين العهود اين الهواتف التي كانت تدوم لساعات وساعات اين الورود والاهم اين ابنتنا؟

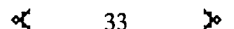
سافرت اريد امي عدت اليها اخبرتها بكيت في احضانها وبقيت عندها ما بقيت وعدت الى ربيعي كيف لي ا ن اعيش من غيره كيف اقبل ان يكون لغيري ؟اقلعت الطائرة كنت اقرب الى السماء من الارض ودعوت الله كثيرا.

هبطت الطائرة وهبط قلبي معها فأنا لم اكلمه منذ ان سافرت وجدته منتظرا حمل ابنته سألني عن حالي ودخلت سيارته، لم يتفوه بكلمة أردت ان انزل مظلة السيارة فالشمس في عيني، سقطت ورقه فتحتها حاول ربيع منعي واذ بها قسيمة زواجه من الأخرى.

ماظل دموع ولا بقيت قوة. توقف بالسيارة وصرخ هو هذه المرة: لقد خنتك معها اجل وهي حامل مني ماذا عساي ا ن افعل؟

بكل برود اجبت طلقني طلقني يامن قضيت معه نصف عمري طلقني يامن علمني الحب والخيانه طلقني ولكن هل احببتني يوما ؟

طلقني ربيع وتنهدت سألتها هل ما زلت تحبينه؟لمعت عيناها كتلك اللمعة التي كنت اراها في المدرسه حين رأته في المرة الاولى.



وهبت لميس نفسها لتربية ابنتها ولعملها اتصلت بها لزيارتها فتحت لي ابنتها الباب قبلتها لقد اصبحت شابة قلت لها. استقبلتني لميس وجلسنا بشرفة بيتها الخضراء شربنا القهوة تبادلنا الاحاديث. نادت لميس ابنتها طالبة منها ان تدير الراديو وسمعنا معا:

يقول الناس انك خنت عهدي

ولم تحفظ هواي ولم تصني

على اني اغالط فيك سمعي.. .. ..

هاجر ربيع الى اوروبا وبقيت لميس بلا ربيع في حياتها.. .. .. .

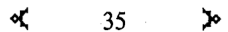
صغيري دانيال*

مضى من الوقت نصف ساعة وأنا لا زلت انتظر دوري في الدخول إلى طبيب العظام فلقد حاكت سنوات عملي الطويلة سترتها الثقيلة لتلبسها ظهري الذي أثقل كاهله من هموم الزمان، كنت انتظر وأنا بطبعي لا أطيق الانتظار ناظرة في الوجوه تارة وممسكة بالمجلات تارة أخرى وما هي إلا لحظات وإذ بسيدة تدخل العيادة وتجلس على المقعد الذي يقابلني.

وكعادتي الدائمة نظرت في وجهها فأنا من عادتي النظر في الوجوه لا ادري لماذا؟ لربما لأنني بطبعي أحب معاشرة ومخالطة الناس أو يمكن لأنني اعرف السجايا والطبائع من الملامح نظرت إليها نعم أنها هي ملامحها الهادئة وازددت تأكدا عندما سمعتها تتحدث إلى السكرتيرة أكيد أنها هي فصوتها وكلماتها لا تزال لا تغادر ذاكرتي قمت من مكاني واتجهت نحوها وقلت سلمى؟؟؟؟ التفتت إلي ونظرت مابين متذكرة وعارفة وقالت أنت أم دانيال فأجبتها: أنا هي وسلمنا على بعضنا سلاما حاراً سألتها عن أخبارها، إلا أنها كانت تنتظرني أنا لأخبرها أخباري جلسنا وقتها تمنيت أن يتأخر الطبيب وتطول الدقائق.

---

* دانيال: من أسماء الأنبياء ومعناه عطية الله.

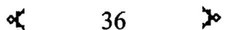


عاد شريط ذكرياتي سبعة وعشرين عاما إلى الوراء إلى شهر يناير تحديدا حين رن جوالي وظهر رقم مدرسة صغيري دانيال كنت اشد الحرص على أن احمل الجوال معي أينما ذهبت حتى حين أتجول في عملي كنت لا أضعه من يدي لأنني كنت أخاف من اتصال إحدى مدارس أبنائي لشيء ضروري.

وقتها رن جوالي كنت في عملي كانت سلمى مديرة مدرسة دانيال قالت أسفه على الإزعاج ولكنني أريد أن أكلمك بشأن دانيال سألت بلهفة وخوف هل هناك مكروه لا سمح الله؟ فردت لا لا ولكنه موضوع بشأن سلوكه أكلمك حين أراك فقلت لها سأكون عندك قبل نهاية دوامي بساعة.

وقتها لم استطع الانتظار فطلبت مغادرة من عملي وذهبت إليها قابلتني سلمى بابتسامتها المعهودة وطلبت إلي الجلوس وحين جلست أخبرتني قائله أم دانيال إن سلوك دانيال أصبح من الصعب السيطرة عليه فهو كثير الحركة دائم الصراخ حتى أن بعض الأطفال بدؤوا بتقليده والأهالي بدؤوا يشتكون ومعلمته هددت بتقديم استقالتها في حال استمر دانيال في المدرسة فهي دائمة الشكوى منه أيضا ، اعتذر لإخبارك بذلك ولكن من الصعب أن يستمر داني بهذه المدرسة.

وقفت كلماتها كالخنجر في قلبي نزلت دموعا كالجمر على وجنتي أحسست أن روحي تؤلمني تمالكت نفسي وقلت انتم

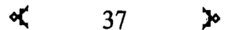


جميعا لم تقصروا لقد فعلتم كل ما استطعتم مع ولدي اعرف أن لديه تأخرا مقارنة بباقي الأطفال في نفس عمره أنت تحدثينني عن شيء أنا أعرفه فلدى الأم مشاعر خاصة ولقد شعرت باختلافه منذ ولادته والله المستعان.

كانت سلمى متأثرة جدا فانا اعلم أنها تحب دانيال خففت عنها أو لربما أني تعودت على تحمل الصدمات في أللحظه الأولى، دمعت عيناها أخبرتها أن هناك فرقا بين الحب. والعمل تعذرت بأنه ليس لديها أخصائيات للتعامل مع داني وحينها قاطعتها وقلت لا تبرري وأنا متأكدة أن الله سيختار له الأحسن وأما أنا فلقد فوضت لله أمري بأن يختار المناسب.

مر شريط الذكريات أمامي ولم يوقظني منه إلا صوت سلمى وهي تسألني كيف داني؟ بدأت أقص قصتي لسلمى التي تمنت هي الأخرى أن تطول الدقائق فلقد كانت تشعر بشيء من تأنيب الضمير رمقتني منتظرة ان أبدأ وبادرت بالسؤال كيف داني؟ وماذا حدث معك؟ فبدأت حكايتي.

عدت إلى البيت يومها بعد أن أخبرتني بشأن داني وناقشت وزوجي في الأمر وقررنا البحث، واذكر أننا يومها لم نعد إلى البيت قبل الساعة العاشرة مساء ولم يذهب بحثنا سدى فلقد سجلناه في مدرسة وكنت أصر على أن الأسى يعلم الأسى وان داني يجب أن يدرس بمدرسة عادية، وكنت مؤمنة بذلك. ولكنني أيضا بدأت معه جلسات تدريبية مكثفة كان يرفضها، في البداية كان يبكي



يصرخ يركض يرمي بنفسه على الأرض كنت أتعذب في كل جلسة لا بل في كل يوم لا لان الجلسة تأخذ من وقت عملي أو وقت عمل زوجي في أخذه إليها وإعادته بعد أن تنتهي إلى مدرسته فقط، بل لأنني لا أطيق دموعه وصراخه ونبرات المدربين القاسية. شعرت بعد فترة أن جلسات التدريب لا تسمن ولا تغني من جوع او لربما قد أصبت باليأس والإحباط.

بعد فترة من الوقت أصبح صغيري أكثر هدوءاً ويستجيب للجلسات ويتفاعل مع المدربين كان داني يزداد جمالا يوما بعد يوم وأصبحت ملامحه أكثر وضوحا وازدادت جاذبيته.

حفرت فترة طفولة داني الأولى حزنا وخوفا عميقا في قلبي لا يعلمه إلا الله كنت أدعو الله كثيرا كانت ملاحظات الآخرين حوله تدمي قلبي حتى أنني دخلت في حاله اكتئاب كرهت وقتها نفسي وزوجي وبيتي وكرهت كل شيء.

كلما ذهبت لحفل تخريج تخيلت أن داني معهم تمنيت أن يكبر وافرح به كما تفرح الأمهات الأخريات بأبنائهن. ضقت ذرعا وضاقت علي الأرض بما رحبت.

مرت الأيام تجر أذيالها وتذيب شموع عمري فتارة تفرحني بتطور بسيط وأخرى تحزنني بتأخر واضح كبر داني يوما بعد يوم وكانت تصرفاته لا تناسب عمره أخفقت في وضعه بمدرسة إخوته الدولية إلا أنني أقسمت على نفسي أن لا يكون اقل شأناً منهم.

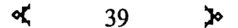
كانت الدنيا تضحك لي عندما أرى ضحكته، قاطعت حديثي عاملة العيادة لتسأل ماذا نحب أن نشرب؟ فطلبت فنجانا من القهوة وطلبت سلمى فنجانا من الشاي أكملت حديثي، كانت سلمى تنتظر حتى أنها كادت أن تخبرني بأن لا أقاطع كلامي لأشرب قهوتي، وتابعت.. مضت أول سنة بعد أن غادر مدرستك وكانت أصعب أيام عمري وأمرها على الإطلاق، غلفت أيامها التناقضات فكان داني مابين تحسن وتأخر وتقبل ورفض من الآخرين سألت الله الصبر والفرج كنت أدعوة في كل لحظه (ربنا لا تحملنا مالا نطيق).

أثرت نفسيتي على كل شيء حولي وقتها ما عدت ابكي كما كنت افعل بالسابق لأنه لم يعد مكانا للدموع بعد ذلك وضعته في مدرسة متخصصة تعتبر الأفضل في البلد الذي كنا نعمل فيه من حيث تقديم الخدمات التعليمية بين طلاب عاديين وكانت أقساطها فلكية. يسر الله لداني خادمة أحبته وتقبلت كل تصرفاته.

عاما بعد عام كبر داني وكان قد اكتسب من خبرة الحياة الكثير الكثير وبدأ يتحسن ظهر عنده ميول فنيا واشترك بالكثير من المعارض الفنية وحقق المراكز الأولى في العديد من المسابقات.

أصبح الماضي كأنه كابوس مزعج استيقظت منه.

تخرج داني وسافر لإكمال دراسته تميز هناك كان تميزه بلسما لجرح طويل وفرحا لقلب أدماه الحزن والأسى. تخرج داني



ويكمل الآن دراسته العليا ولله الحمد ولقد حج لبيت الله الحرام والآن ابحث له عن عروس.

لقد عوض الله صبري خيرا وأصبح حزني وخوفي عليه ماضي يبدأ بعبارة (كان) ولا زلت حتى الآن أتذكر كلماتك الأخيرة سامحيني وقتها لم أسامحك ولكني دعوت الله أن لا يجزع قلبك على فلذة كبدك فهذه اكبر وأعظم من السماح.

نادت السكرتيرة استأذنتها لقد حان دوري دخلت على الطبيب فكرت بعدها بان سرد القصص لا يروي إلا جزءاً من أجزاء وفصلا من فصول وعصرا من دهور ودمعة واحدة من بحور دموعي التي ذرفتها وعلمت وقتها أنني لا أجيد السرد.

كيف لا وأنا التي كان لليل طعم مختلف عن النهار كيف لا وأنا التي كنت أتمنى أن لايطلع الصبح كيف لا وأنا التي كلما عقدت العزم على الصبر حتى فرَّ الصبر مني كيف لا وداني هو الروح والقلب.

فكيف إذن لامرأة مثلي أن تسرد هذه المشاعر العظيمة ولكنني على ثقة بان الله هو الذي يكتب قصة حياتنا وعلينا أن نرويها بتأدب لأنه وبالتأكيد كاتب لنا الخير فيها. خرجت من عند الطبيب وكانت سلمى قد تركت لي قصاصة مكتوب عليها سامحيني.

أمل البطة

هكذا كان اسمها ((امل)) وكانت عائلتها تلقب بالبطة لم أكن اعي آنذاك ما مدلول ذلك اللقب إلا أنني وبعد أن أصبحت اعي ما يدور حولي _لحد ما_أدركت أن ذلك اللقب،البطة، أطلق عليهم لسمنة في أجسامهم اعني أسرة أمل.

كانت أمل تعيش وأسرتها في منزل مكون من غرفتين واحدة لتنام بها الأسرة المكونة من عشرة أفراد أو أكثر حسب ما اذكر والأخرى عبارة عن غرفه للطبخ والاستحمام، نعم للاستحمام فلم يكن منزلهم يحتوي على حمام بل كان يحتوي على ما ندعوه نحن (الخارج) .

نادرا ما كنت أرى أمل تلعب معنا في الشارع حيث أنها على رغم صغر سنها كانت تقوم بالكثير من الأعمال المنزلية كانت يديها خشنة على عكس أيدي الأطفال وكانت دائما ملابسها وخصوصا بنطالها مبلل أو مرفوع استعدادا لتنظيف ارض المنزل الأسمنتية. كانت أمل تعرف تماما كيف تغير حفاظات الأطفال القماشيه بمهارة وإتقان مع أن عمرها لم يتجاوز السبع إلى الثمانية سنوات. كنا نجلس في الحارة انا ولينا وفرح نلعب (الحجلة، القفز عن المطاطة، الغماية) أمام منزل أمل لأنه متمركز في وسط

الحـارة، نـدق عليهـا في بعـض الأحيـان لتخـرج للعـب لا لـشيء وإنمـا لاكتمال أعضاء الفريق أو اكتمال العدد يعني أنا وفـرح فريق ولينـا وأمل _إن خرجت_فريق ثان.

كان عالمها مختلفاً تماما عن عالمنا فعالمنا وردي لا نعرف فيه إلا اللعب أو التحدث عن المدرسة أو الفساتين الملونة وكانت لا تعرف بدورها إلا أن تتحدث عن حصتها في العمل اليومي في تنظيف منزلهم. فلقد كان قدرها أن تكون البنت الوحيدة لأسرة تضم تسعة ذكور. لم أتذكر أنني رأيتها يوماً تذهب للمدرسة أو ترتدي (المريول الأزرق) أو (الشبرة البيضاء) التي توضع على الضفائر أو أنني حتى لم أراها يوما بضفائر فالضفائر تريد من يمشطها ولا احد يمشط أمل.

وفي إحدى الأمسيات الطفولية أي بعد العصر خرجت للعب كالمعتاد، طرقت باب فرح فخرجت أختها وقالت إنها غير موجودة ولينا كذلك لم تكن في البيت لتلعب معي. ذهبت وطرقت باب أمل ففتحت لي الباب وقالت ادخلي دخلت وكانت هذه المرة الأولى التي ادخل فيها بيتهم أما المرات السابقة فكنت المحه عندما يفتح الباب. كان باب البيت حديدياً إلا انه كان قد أكل الدهر عليه وشرب ولا يعرف له لون فجزء منه صدى والجزء الآخر يحمل لون الباب الأصلي اللون الأخضر وجزء آخر مقشور دخلت البيت كانت الأبواب الأخرى الداخلية

لا تقل سوءاً عن الباب الخارجي أما باب (الخارج) فكان عبارة عن قطعه من القماش المهترئ وأيضا هذه القطعة لا يعرف لها لون. دخلت وإياها للغرفة الأولى كان فيها طاوله خشب موضوع عليها جميع أغطية النوم والمخدات وكان يطلق على ذلك اسم (حامل) أي حامل لفراش البيت، وفي الجزء الاخرمن الغرفة كان هناك خزانه خشب أو هيكل خزانه خشبية فأبوابها مخلعة إلا أن الملابس بداخله كانت مرتبة بشكل جيد وكان على الأرض حصيرة وأربع فرشات للجلوس كانت أمل تتحرك في البيت وترتب وسألتني ماذا تشربين؟ استغربت من هذا السؤال فلقد أشعرتني أنني كبيرة وكنت قد شعرت بذلك للمرة الأولى في حياتي فقلت دون تردد شاي فلقد كنت ممنوعة من شربه خوفا من الاحتراق هكذا كانت تقول لي أمي. على أي حال أشعلت أمل (البابور) وكنت مستغربة كيف تعرف أن تفعل ذلك فأنا لا اعرف إلا اللعب!!!

كنت دائما اسمع عبارة احذري من النار كثيرا فقلتها لها. سمعت من ينادي اسمي في الحارة فلقد اعتادت عماتي وجدتي أن يرسلن احد الفتية في طلبي إذا أردن مني شيئا فقلت لها على استعجال سأذهب إن هناك من يناديني وكنت قد

اعتدت على تلبية النداء بكل ما أوتيت من سرعة خوفا من العقاب و خرجت مسرعة.

مر أسبوع أو أسبوعان فلا تقدير لحساب الوقت عند الأطفال ولم أر أمل مع أننا كنا نلعب يوميا أمام بيتها إلى أن رأيناها يوما ونحن جالسات على عتبة بيت أبي نضال كنا نحب الجلوس على تلك العتبة لأنها مريحة ومسطحة بشكل جيد رأيناها وكنا نتحدث عن الأحلام والمستقبل قالت فرح: عندما اكبر أريد أن أكون معلمه وارتدي حذاء بكعب عالٍ. أما لينا فقالت أريد أن يكون لدي بيت كبير له حديقة جميلة وحاكورة وسيارة حمراء. فقلت أنا أريد أن أصبح طبية أسنان ولقد اعتدت حقيقة أن العب دور الطبيبة وان أتحسس أسنان بنات الحارة اللبنية التي آلت للسقوط ا وان أحرك أسنان أخي المتهادية يمينا ويسارا. أما أمل فلقد قالت احلم بأن يكون لدينا مطبخ فيه (مجلى) لأنني كلما غسلت الصحون في (اللكن) ابتلت ملابسي وأريد أيضا أن يكون في مطبخي ارفف أضع عليها الصحون والأطباق. لم اعد أرى أمل منذ ذلك اليوم فلقد انتقلوا للعيش في مكان آخر وانتقل معها حلمها وبقيت كلماتها ترن في مسمعي وبقينا أنا وفرح ولينا في الحارة مع

أحلامنا أدركت بعد أن كبرت أن أمل كانت تعيش التجربة بينما كنا نبحث عن التساؤلات*.

---

* **الخارج:** مكان لقضاء الحاجة سمي بالخارج لأنه عادة ما يبنى خارج البيت يكون صغير الحجم لا يتسع إلا لشخص واحد فقط.

* **الحجلة والغماية والقفز عن المطاطة:** أسماء ألعاب شعبية سائدة في فلسطين والأردن.

***المريول الأزرق:** لون الزي الموحد لمدارس الإناث في الأردن اللون الأزرق.

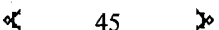
***الشبرة البيضاء:** شريط حريري من القماش يوضع لربط ضفائر الفتيات.

***حامل الفراش:** هو المكان الذي يلم ويجمع فيه كل ما يخص البيت من الأغطية والبطانيات والفرش.. . الخ

***البابور:** موقد يعمل على الكازولين لطبخ الطعام

***مجلى:** حوض من الجرانيت أو الرخام يكون في المطبخ

***اللكن:** حوض معدني كبير لغسيل الملابس وتنظيف الصحون وكانوا قديما أيضا يستخدمونه للاستحمام لسهولة التخلص من الماء بعد ذلك.



خاتمي أنا

وكعادتها الصباحية نفضت ضحى غطاءها بكسلها المعهود نظرت إلى الساعة آه لقد تأخرت انتفضت من فراشها مسرعة فاصطدمت بأختها الملاصقة في الفراش لها _فلا أسوار ولا تهوية تسمح بها مساحة الغرفة الضيقة بين الفرشتين_فصرخت بها ولكن ضحى لم تأبه ركضت للحمام وبعد ذلك لارتداء ملابسها، نظرت في المرأة وأخذت مساحيق التجميل وقالت آه ليس لدي وقت كافٍ يكفي القليل من الكحل اليوم، وصرخت فجأة أين حجابي لقد حضرته ووضعته مكويا بالأمس أين هو؟ فأجابتها أختها أما آن لك أن تخرسي وتنظري، انه على الكرسي اوعلينا أن نستيقظ معك كل يوم ؟ ما هذه الحماقة ثم دفنت ريم أخت ضحى وجهها في فراشها فالسبات في فصل الشتاء من النعيم.

ارتدت ضحى الحجاب وخرجت مسرعة من البيت إلى الطريق العام لانتظار باص الحي مر الباص الأول ولكنه مليء بالركاب وبعد وقت لا يتجاوز الخمس دقائق مر الباص الثاني صعدت إليه لم يكن لها مكان ولكن احد الشبان تطوع وأجلسها مكانه قائلا: تفضلي.

جلست ضحى وسعلت سعالا شديدا لا لأنها مريضة بل لرائحة الدخان الكثيف في الباص الممزوج بروائح رطوبة الشتاء

ورائحة الافواة النتنة نظرت إلى النافذة لترى اشباه الأشياء والصور والأشخاص. وقف الباص عدة مرات ليخرج منه أشخاص ويصعد إليه آخرون وأخيرا نزل الراكب المدخن من جانبها وجلس غيره كالمعتاد لم تعر أي شيء انتباهها لأي شيء فهذا هو روتينها منذ أن أنهت دراستها في الكلية وبدأت تعمل.

نظرت للمقعد أمامها بشكل غير مقصود فلفت نظرها خاتم يرتديه احد الشبان منظر جديد مختلف عن الأشكال التي أراها كل يوم هكذا حدثت نفسها! حط الباص في مهبطه نزل الجميع ونزل صاحب الخاتم ونزلت خلفه هي وأسرعت في المشي حتى لا تتأخر عن الركوب في الباص الثاني اه قالت في نفسها حين اقتربت من موقف الباص الثاني هناك طابور بشري في الانتظار وقفت في الطابور لانتظار الباص وأخذت نظراتها يمينا وشمالا تراقب لا شيء حتى وقعت عيناها بعيني ذلك الشخص الناظر إليها والمحملق فيها، أشاحت بوجهها وتجاهلت نظراته وبعد ثوان أعادت النظر إليه، كان لا يزال محملقاً فيها اه انه نفس الشاب والخاتم يلمع في يده.

قطع تفكيرها الباص القادم صعدت إليه نظرت من نافذته وإذا به ينظر أغلقت الستارة وأعلن الباص إقلاعه.

مر اليوم بالمدرسة مثل باقي الأيام فلا جديد أبدا وصول على الموعد حضور للطابور وحصص ولعب وضجيج وصراخ فهكذا هو حال طلاب المرحلة الابتدائية. إلا أن شعورا تسلل إليها أشعرها بشيء

جديد. سار صباح اليوم التالي كباقي صباحات الأيام الخوالي خرجت من البيت لكنها التقته مرة أخرى قالت في نفسها انه هو مشى إليها اقترب منها يا آنسه التفتت إليه بعينيها السوداويين فتجمد واقفا أمام سهام النظرات وحلكة سواد العيون قائلا ما أجملك! فقالت عذرا قال هذا رقم جوالي أرجوك اتصلي أرجوك فنظرت إليه وقرأت تفاصيل وجهه وسحرت بالعيون الخضراء ودقه ملامح الوجه التي أخرستها وكبلت كل شيء فيها إلا دقات قلبها التي تجاوزت في سرعتها عداءة في الاولمبيات أخذت الرقم المكتوب على قصاصة بيدها المرتجفة وأشاحت بوجهها.

تمنت أن يمر اليوم بسرعة حتى تعود لوسادتها وترمي عليها أفكارها ومشاعرها وتقرر ما تفعل. في ذلك اليوم تنازعتها فكرتان الأولى كيف تتصل وتتعرف على شخص بهذه الطريقة والثانية شعورها بأن شيئاً غريباً يدفعها للاتصال، اتصل أو لا اتصل الآن بعد قليل وهي تجوب الغرفة ذهابا وإيابا غدا أفضل لا ولماذا غدا اليوم محدثه نفسها كل البنات يفعلن ذلك سوف اتصل. أمسكت ضحى بجوالها الموصول في شاحنه الكهربائي أغلقت باب الغرفة ودقت الرقم وبصوت مرتجف ألو.. . فرد: عرفت انك سوف تتصلين، وما أدراك أنني سوف اتصل عيناك قالت ذلك. ما اسمك اسمي عيسى وأنا مهندس وأنت لا داعي أن تعرف اسمي ولكن لماذا؟اقسم بالله أن اسمي عيسى وأنني مهندس. لا تقسم اسمي ضحى وأنا معلمة. ما

أجمل اسمك. من هنا كانت البداية كان عيسى ينتظر ضحى كل يوم ليذهبا في نفس الباص ينظر إليها وتنظر إليه ويمضيا كل الليل إلا قليلا يتسامران ويبنيان الأحلام وتعطيه التقرير اليومي لعملها ويفعل هو الشيء نفسه إلا أن دقت طبول الفراق المفجعة وعرفت ضحى أن عيسى نصرانيا.

لامته كثيرا لأنها أحبته عاتبته لماذا لم تخبرني بذلك فكان الرد لأنني أحبك ببساطة. اتفقا على أن لا يفتحا مسألة الدين بعد ذلك والزمن كفيل بكل شيء استمرت المكالمات واللقاءات الصباحية ولكن إلى متى؟؟ بدأ عيسى يخبرها أن أمه تبحث له عن زوجة وانه يذهب ليرى الفتيات ولكنه يتعذر بأن لا شيء يعجبه لان ضحى أسرته وكبلته فباتت هي حواء ولا غيرها أنثى. وبدأت ضحى تمرض من شدة حبها وقلة حيلتها تختلط خيوط الليل بخيوط النهار وهي لا تزال مستيقظة. وبدأ عيسى يبدو هزيلا أنه الحب لا بل الحب المستحيل.

هل نكمل قالت: فرد أبقى معك حتى نهاية عمري فقالت: مشينا طريقا طويلا وها نحن وصلنا لنهاية الطريق المسدود. أود أن اطلب منك شيئا أخيرا فرد اطلبي ياحبيبة الفؤاد، أريد أن امشي معك، وافقت لا لشيء الا لأنها تود ذلك أكثر منه حددا يوما وموعدا والتقيا دعاها إلى الغذاء وبعده مشيا طويلا حتى وصلا إلى إحدى المقاهي سألها أتودين الدخول سبقتها قدماها ولم تجب فابتسم وتنهد فمنذ زمن لم تعرف شفتاها الابتسامة.

سحب لها الكرسي جلست ثم جلس هو. ماذا تشربين؟ قهوة كانت الأضواء خافتة وسحب الارجيلة العاقر دون أمطار تملأ المكان نظرت إليه قالت له هذه آخر مرة سأراك فيها فقال لها أرجوك وتابعت كلامها ولكن لي رجاء عندك إذا رأيتني في أي مكان تجاهلني وانسحب أنا لا أستطيع رد عليها، أرجوك افعل لأجل عينيك ورغما عن جراحي افعل ما تريدين اه كم سواد عينيك غير محدود اه كم اعشق كل شيء فيك ما أجملك وسقطت دمعة خرجت من فؤاده الملتهب حبا وفراقا وألما نظرت إليه وقالت لا تبك لان موسم البكاء لم يبدأ بعد.

أحضر النادل القهوة فأشاحت بوجهها إلى فتاة جالسة وتبادلا بعض التعليقات عنها وضحكا كانا يريدان أن يهربا توقفت ضحكته وقال لو أننا بلا دين لتزوجنا فقالت استغفر الله، ونظر إليها لو أنني استطع تغيير ديني فردت أنا لا أؤمن برجل يغير دينه من اجل امرأة. انهيا احتساء القهوة وهما بالذهاب فقالت قبل أن نذهب عدني يا عيسى؟ أعدك بماذا بما طلبته منك. فقال أعدك يا كل صباحاتي ونزلت دمعة من عينه عانقت غطاء الطاولة وخرجا.

مرت الأيام طويلة بائسة كئيبة غائمة لم تراه فيها وجاء اليوم الذي تخشاه ويخشاه فبينما هي جالسة بالباص تنتظر انطلاقه بوجهها الشاحب وجسدها الهزيل وملامحها الجزينة وإذ بشخص يصعد الباص أحسته قبل أن تراه نعم انه هو. لم يراها وجلس في

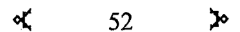
المقاعد الأمامية ووضع يده على المقعد الذي أمامه لمع شيء في يده انه الخاتم لا ليس خاتمي صرخت في نفسها أنه خاتم زواج. صرخ كل جزء فيها عيسى كان لي أرادت النهوض لكنها لم تستطع أرادت البكاء فخانتها الدموع، أحس بها أدار رأسه رآها لقد وعدها بعدم البقاء تمالكت نفسها ولملمت كتبها وخرجت من الباص نظر إليها حتى اختفت عن ناظريه. وصلت إلى البيت صرخت بكت انهارت وخانتها قواها ليومين لم تستطع خلالهما النهوض والجميع يجهل ما السبب ضاقت ذرعا من فراشها صعدت إلى سطح منزلها نظرت بعيدا فرأت في الافق مسجدا وكنيسة متقابلين فقالت هكذا نحن متوازيين لكن المتوازيين لا يلتقيان ابد بكت بحرارة قلبها وبرودة الشتاء موقنة أن الصليب والهلال أسمى الرموز التي لا تلتقي.

اليوم اودع اسطول محبيني

أذن الفجر وكان هذا موعدنا للانطلاق والعودة لبلدنا من البلد الخليجي مسافرين برا لتمضية إجازة الصيف. كنا قد حزمنا الامتعه قبلها بيومين وكان زوجي قد حملها في السيارة مسبقا. انطلقنا أنا وزوجي وطفلي وخادمتي في سيارتنا الصغيرة لم أخبر أهلي _اعني جدتي وأخي وعماتي_ بأننا سنسافر برا حتى لا يخافوا فلسفر البر خطورته وصعوباته وظروفه الخاصة.

في كل خطوة نقترب بها من الحدود ونبتعد فيها عن بيتنا كنت أرى وجهها في السماء تبتسم لي ويديها تحتضنني كنت اعشق كل شيء فيها أصالتها كبريائها قوتها التي أمدتني بها لسنوات طوال (تاتا) هكذا اعتدت ان أناديها لا اعرف لما لربما لان كلمه تاتا قريبة من كلمة ماما التي لم نعش معها . اشتقت لك من كل قلبي قلتها سرا وذكرتها ألف مرة لزوجي أثناء الرحلة.

نزلنا عدة مرات على الطريق للاستراحة او لاحتساء القهوة وشرب الشاي أو لتغير حفاظات صغيري وإطعامه. كانت تنتابني مشاعر مبهمة فتارة اشعر بالسعادة لاقتراب رؤية أحبابي وتارة أخرى اشعر بخوف وحزن لا اعرف ما مصدرهما.



أوشكنا على قطع منتصف المسافة تقريبا وإذ بهاتفي يرن اه انها عمتي أخبرت زوجي فقال ردي عليها ولا تخبريها أننا على طريق البر حتى لا تقلقيهم. (الو عمتي كيف الحال أهلا حبيبتي أين أنت؟أنا في البيت. العمة: اسمعي الموضوع هام وعاجل جدتك مريضه جدا احجزي على اقرب طيارة وتعالي. تجمد كل شيء حولي وبداخلي، العمة: الو ألو نعم عمتي مابها؟العمة: يقول الطبيب أن عندها تسمم في الدم وسننقلها للمستشفى فورا. ولكنني في طريق السفر إليكم هكذا أجبتها فقالت أقول الآن تعالي ورمت السماعة فرد علي صوت آخر لا اعرفه قال: أنا الطبيب وجدتك بحالة حرجة قلت: ولكننا في منتصف الطريق ماذا أفعل؟ قال أوصلكم الله بالسلامة إذن غدا تصلون وان غدا لناظرة لقريب).

إلا عندي كان ابعد ما يكون بكيت كثيرا في الطريق حاول زوجي تهدئتي وقال أعدك بان يكون أول مكان ندخل إليه المستشفى وصلنا إلى فندق لننام به تلك الليلة.

لا ادري وقتها ما الفرق بين الليل والنهار لم تغمض لي عين ولم يهدأ لي بال لم أتصور يوما أنني سأخسرها لم تشكل لي في حياتي الجدة فقط كانت أمي وحاضنتي وجدتي والمترادفات كثار.

لم أحب أحداً في حياتي مثلما أحببتها كيف لي أن أعيش من غيرها ممن سأستمد قوتي؟ من سيدافع عني ؟من يحبني كما احبتني هي؟ من ومن ألف سؤال بلا جواب في خاطري وانتظرت

الصباح الذي أبى أن يظهر وفي حوالي الساعة الثالثة صباحا قال زوجي: هيا لننطلق لنكسب وقتنا وحتى نتجنب الحر قدر المستطاع.

انطلقنا مشت السيارة وقطعنا مسافات ومسافات وأنا أدعو الله أن أراها كانت تجول في خاطري ألف فكرة وفكرة وماذا إن ماتت فأهز رأسي نافية ومستنكرة، حبيبتي كيف لها أن.. . كأن إعصارا من الأفكار يدور في رأسي بل بداخلي وأخيرا دخلنا الحدود، لم يبقى لنا للوصول إلا ساعة قال زوجي: وأكمل لا تخاف وعدتك بأن أول وقفه للسيارة ستكون أمام باب المستشفى.

كانت الشمس قد جهزت نفسها للمغيب فلقد انتهى دوامها اليومي وأدكن لونها ومال للبرتقالي وأخذت الطريق تضيق تارة وتتسع تارة أخرى كأنها تخبرني والشمس أن الدوام من المحال.

وأخيرا وصلنا فتحت الباب ونزلت لا ادري كيف ركضت أو مشيت ما عدت اذكر دخلت قسم العناية المركزة كانت تاتا على السرير الذي اعتدت أن أراها عليه وعليه فقط لعشرة أعوام أو أكثر.

وجهها منتفخ رأيتها انهرت في مكاني صرخت تا تا اقتربت منها لم يستطع صدرها الذي ضمني كل السنون أن يضمني الآن قبلت يدها رأسها ناديت تاتا وانهرت من البكاء. لم اعي حتى اللحظة من حولي. هدأن عماتي من روعي قليلا فلا يستطيع انس ولا جان أن يطفئ نيران قلبي على جدتي التي بت على يقين حين رأيتها أنها لحظات وداع لا لقاء كيف لا وأنا التي اعرف رائحتها وهمسات

صوتها وحركات يديها وحتى نظراتها من لي سواها إذا ما رحلت أين الامومه والطفولة إذا ماتت تاتا؟.

دخل زوجي وطفلي وخادمتي ابتسمت تاتا لطفلي وسلم عليها زوجي وبعد قليل أشارت برأسها لي أن اقترب فحتى يدها لم تقو على تحريكها اقتربت منها قالت هامسة: اذهبي إلى بيت أهل زوجك ليسلم على أمه وبدلي ملابسك وملابس طفلك فأنتم قادمون من سفر ومن ثم عودي هززت رأسي بأني لا أريد قالت (يايما) عيب.

في اليوم التالي قرر الطبيب أن تخرج من المستشفى لأن لا شيء يستطيعون فعله أكثر من البيت ولأن عماتي ممرضات يستطعن وضع المحلول الدوائي وإعطاء الإبر اللازمة لها والإشراف عليها بالاضافه لإلحاحها الشديد للخروج من المستشفى.

في كل يوم كان لون الشمس يصبح أكثر اغمقاقا وتنزل أكثر من عرض السماء جلست عند قدميها في غرفتها التي ضمتني وإياها سنين طويلة جلست على طرف سريرها الذي أنامتني عليه في حضنها أعواما وأعوام اه من تلك الغرفة التي تحمل على جدرانها ذكرياتي كانت تاتا تنظر إلي وكانت نظراتها تتكلم قالت ما بك ؟ قلت لا شيء وأخذت ابكي ردت هل هناك أي مشاكل بينك وبين زوجك هل أنت غير سعيدة؟ أحسست وقتها أنها لم تدرك بعد أنها سبب سعادتي وحزني أنها سر اللون الوردي في حياتي. ضحكت رغم دموعي وقلت سبب حزني خوفي عليك وأجهشت بالبكاء. ابتسمت

وقالت _استوى العدس_تذكرت وقتها عندما كنت في الصف السادس ومرضت تاتا وكنت نائمة الى جوارها في السرير وهي تتألم أخذت ابكي وكان الظلام دامس في ليله شتوية فمدت يدها وأحست وجهي قالت: أتبكين حبيبتي لا تخاف فأنت وأخوك رسالتي التي لم انهيها بعد لا تخاف فإن الله سيطيل عمري لأجلكم ولن أموت إلا بعد أن تكبروا وتنهوا دراستكم وتتزوجوا.

وكأن الأيام عقدت اتفاقا معها تلك الليلة وأوفت بوعدها لها تمنيت أن تقول الكلمات ذاتها الآن لكنها لم تفعل. جاء اليوم الثاني وازدادت الحالة سوءاً ودخلت في غيبوبة وازددت خوفا من الفراق الوشيك الذي بات على الأبواب وفي اليوم الثالث غابت الشمس وماتت تاتا.

وحينها شعرت أنني بلا أحباب او أصحاب تجمدت دموعي أحسست باليتم للمرة الثانية في حياتي إلا أن الفرق أنني وجدت أما في المرة الأولى ومن أين لي أن أجدها في المرة الثانية.

تم نقل جدتي لثلاجة الموتى لوضعها حتى صباح اليوم التالي _اسمحوا لي على أنني لم أجيد التعبير عن هذه اللحظات فلا تعابير تكفي أو تعبر لا اضاقكم الله الحزن على حبيب_.

لم اعرف كيف نمت افترشت الأرض بلا غطاء كيف لا وتاتا تنام في ثلاجة الموتى وروحها غادرت الدنيا كيف لي أن أراها، اسمعها، من سيرد على الهاتف حين اتصل من سيدعو لي ويقول

أودعتك الله الذي لا تضيع ودائعه من سيقف إلى جانبي من ومن ألف سؤال وسؤال.

في صباح اليوم التالي ذهبت إلى المستشفى حيث ثلاجة الأموات لم أعِ من ذهب معي ولكن كانت عماتي ونسوة أخريات دخلت الغرفة سألت الرجل الجالس خلف طاولته بلا ملامح في أي درج هي تاتا فأشار بإصبعه وهم بالنهوض لم انتظره حتى يأتي سحبت الدرج وكشفت عن وجهها كنت قد اشتقت لها من ليلة.

غسلتها المغسلة وكنت واقفة انتهت المغسلة وجلست النسوة بانتظار الرجال في الخارج ليأتوا ويحملوها، بقيت إلى جانبها أحدثها همست في إذنها يا اعز الناس ماتوا أعزائي قبلتها ألف مرة دعوت لها بأن يغفر الله لها ويكرمها كما أكرمتنا وينور قبرها كما نورت حياتنا أنا وأخي ضممتها ودعتها رحلت جدتي الحبيبة.

زرت قبرها في اليوم التالي وأخبرت متعهد القبور أن يكتب عليه (وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيرا) وبذلك كنت قد ودعت أسطول محبيني.

❖ **تاتا أو تيتا:** كلمة تعني جدتي اعتاد الناس استخدامها في بلا د الشام.

❖**استوى العدس:** تعبير يراد به أن وقت الوفاة قد حان.

الباقة

شكلت رحلتي اليومية في الباص جزءاً لا يتجزأ من حياتي اليومية فلقد كنت استقل الباص للذهاب للجامعة و السوق أو لأي مكان في عالمي المحدود آنذاك. كنا نعيش في حي يخدمه باصان وكان علي الانتظار نصف ساعة أو أكثر حتى يأتي الباص فليس هناك مواعيد ثابته لوصولها لأننا وبالتأكيد لسنا في أوروبا.

وصل باص ((ابو جديع)) هكذا كان لقب السائق فنزل (الكنترول) مسرعا من الباص حيث انه لا يعرف أي قاعدة من قواعد الأمن والسلامة كان ينزل من الباص والباص يسير ويقف على باب الباص وهو مفتوح ويجمع النقود ماشيا في الممر الضيق للباص والباص على سرعه ألف وغيرها من الأمور الكثيرة.

صعدت ووجدت كرسيا فارغا بجانب إحدى النساء جلست عليه واخذ احد الرجال بالتدخين كدت اختنق من الرائحة النفاثة التي تنطلق من السيجارة التي لا ادري حقيقة مكوناتها وكانت معظم الشبابيك مغلقه دخن آخرون فخيل لي أنني في (ساونا).

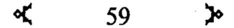
وصلت الى السوق وانتهيت من تصوير الأوراق التي بحوزتي وأخذت جولة تفقدية على واجهات المحال كالمعتاد وعدت إلى موقف الباصات مرة أخرى لأعود للمنزل، كانت الساعة لم تتجاوز

الحادية عشرة صباحا ركبت الباص مرة أخرى وكان علي الانتظار حتى يكتمل عدد الركاب جلست بالمقعد بجانب الشباك أتصفح أوراقي وإذا بي أحس بالتصاق شديد نظرت وإذ بها إحدى النساء اللواتي يسكن في الحي بمنطقة الجبل فلقد أصبحت على علم بالوجوه والمساكن.

كانت تحمل من ثمانية إلى عشرة أكياس بلاستيكية سوداء يظهر أن فيها خضار وفاكهة وكانت تحمل كالطفل بين ذراعيها ضمه من الملوخية الخضراء حجبت عني أوراقها الرؤيا. وضعت جميع الأكياس أمامها أي أسفل الكرسي ووضعت ضمة الملوخية على حضنها أو بالأحرى جزء على حضنها والآخر على حضني.

كانت في الأربعينيات من عمرها أو أكثر بقليل ترتدي جلبابا فقدت آخر ثلاثة أزرار من آخرة وفقد زر منتصفه واستبدل بدبوس. كان واضحا انه قد تم صنعه في حقبة زمنية أخرى ولجسم آخر. وكانت ترتدي منديلا من (الجورجيت) يتدلى على صدرها معلقا بدبوس كبير اخضر اللون من المفتروض أن يكون في منتصفه إلا انه وفي أزمة الشراء والنزول والصعود قد احتل مكانه الجديد قرب الأذن.

كانت الشمس قد لوحت لون بشرتها السمراء وكانت قطرات العرق تتصبب على وجهها وكانت رائحة مشترياتها من



الخضار والفاكهة تفوح من الأكياس ألقيت نظرة سريعة في الباص لأرى كم من الأشخاص بقي لاكتماله أو بالأحرى كم علينا أن ننتظر حتى نقلع.

هناك كرسي واحد فارغ وما هي إلا لحظات حتى صعدت صبيتان واحدة تحمل رضيعا بين يديها جلست على الكرسي الفارغ والأخرى كانت لاتتجاوز الخامسة عشر أضطرت ان تجلس كشخص ثالث بجانب فتاتين على كرسي مزدوج.

نظر السائق في مرآته وقال الكنترول تحرك يامعلم مشى الباص بخطى متثاقلة وصوت المحرك يرتفع حينا وينخفض حينا آخر كان الباص وككل الباصات الأخرى قديم لحد ما فلقد كانت كراسية المنجدة باللون الخمري المخملي قد فقدت بريقها ونظافتها واختلط اللون الأسود باللون الأصلي . وكانت ستائره قد فقدت ليونة ومرونة القماش فأصبحت كالورق من أشعه الشمس والدخان والأوساخ التي غطتها.

وأرضيه الباص كانت من النايلون ولكنني لم أتمكن من تحديد لونه الأصلي بعد فلونه الحاضر رمادي. ناول الكنترول شريط كسيت للسائق فشغل الشريط وإذ به أغنيه حزينة تحطم المشاعر ولقد اعتدت ان اسمعها يوميا في رحله الذهاب والعودة.

رفعت جزءاً من الباقة المسجاة على بنطالي نظفت مكانها قليلا لكنني أعدتها فلا يوجد لها مكان آخر غير حضني الحنون



كـان الكـنترول يـضع خطـة إنزالـه لهـذه الرحلـة بـأن ينـادي علـى الأمـاكن (مخبـز أبـو علـي، المدرسـة، الطلعـة، الـصيدلية، حاويـة النفايات ويختصرها بالحاوية.. .. . نزل هون) وفجـأة انطلق صوت مـن جانبي وإذ بها السيدة الجالسة إلى جواري أنزلنـا، توقـف البـاص بعـد 10 مـتر مـن المكـان الـذي تريـده المـرأة وأخـذت هـي بـدورها تلملـم أكياسـها وأعـواد ملوخيتهـا وحبـات البطاطـا الـتي تنـاثرت ووصـلت جحافلـها إلى آخـر مقعـد في البـاص وأولـه وبعـد 5 دقـائق مـن تفقـد الركـاب مـا إذا كـان تحـت كراسـيهم شـيء مـن مقتنياتهـا أم لا استجمعت المرأة قواها ونزلت وانطلق الباص مرة أخرى.

صعدت صديقتي البـاص وغمـزتني قائلـة: ادفعـي الأجـرة بـدأ الكـنترول بجمـع الأجـرة ووصـل عنـد مقعـدي فمـد يـده لأخـذ النقـود كانت أظافرة طويلة بلونها الأسود الزاهـي دفعت النقود وأدرت وجهـي للخلف مؤشرة بأصبعي على صديقتي وقلت عني وعنهـا مشى البـاص ووصلت إلى بيتي لانتظر باصا وباقة في اليوم التالي على حجري.

ولدي

تلبدت السماء بالغيوم السوداء حبلى بحبات المطر وحل الليل دخلت ام يوسف الى فراشها لتنام متقلبة عليه تارة يمينا واخرى شمالا فالنوم جافى عينيها منذ ان اصاب ولدها مرض السرطان.

كانت ام يوسف بملامحها الهادئة وطيبتها التي ما رأت عيني مثلها وجسمها النحيل وقامتها القصيرة أضعف من ان تحتمل كل هذا الالم الذي سكن روحها وقلبها. وككل الليالي اغرقت وسادتها بالدموع ثم قامت فتوضأت وصلت ودعت لحبيبها حتى الفجر لم تكن تعلم انه الفجر الاخير صلت الفجر وعدت الدقائق لتطلع الشمس وبحثت عن سيارة لتأخذها إلى المستشفى حيث يوسف يقضي ساعاته الأخيرة. همت بالخروج فتحت الباب فنادتها ابنتها آمنة أمي لا زال الوقت مبكرا ولن تجدي سيارة الآن ردت بصوتها المخنوق حتى لو ذهبت مشيا فقلبي شعلة من نار. مشت ما قُدِّر لها ان تمشي كانت الوحيدة في الشارع وجدت تاكسي سألها الى اين يا خالتي فقالت المستشفى. وصلت ركضت الى العنايه المركزة حيث يرقد رأته اليوم أسوأ فلقد زادت الأنابيب الطبية حول جسده.

قبلت يديه قدميه وجنتيه فتح عينه اشار الى الممرضه ان تنزع عنه جهاز التنفس ردت الممرضة ناظرة الى الأم بأنها لا تستطيع رجتها الام عادت الممرضه ومعها الطبيب قال لخمس دقائق فقط كانت هذة

المرة الاولى التي يفيق يوسف فيها منذ ايام.

اقتربت منه أمه أكثر وجهها الى وجهه بكت وبصوت خافت يكاد لا يسمع قال: امي ارضي عني ولا تبكي فدموعك تحرقني واخذ نفسا بصعوبة فوضعت يدها على جبينه وقالت بعد ان انهمرت دموعها على وجهه لا تتعب نفسك ليتني أملك القدرة لأعطيك عافيتي يا ولدي فرد: الوقت قصير دعيني اتكلم ضميني اليك فضمته حتى أحست ضلوعه ملاصقه لضلوعها .

اصدر الجهازصوتا فهرع اليه الاطباء قالوا لها ارجوك ان تخرجي رفع يوسف اصبعه للتشهد حاولت الممرضة ابعادها قائلة ارجوك يا خالتي فالوضع حرج اخرجي قليلا وبصعوبة اخرجتها.

اغلقوا الستارة وما هي الا لحظات حتى فتحت الستارة وغطي وجه يوسف حاولت الام النهوض عن الارض قالت ولدي فردت الممرضه البقاء لله يا خالتي .

صرخاتها المخنوقة لم تتجاوز قلبها المكلوم نهضت وسقطت ثم حاولت النهوض ممسكة بالسرير وقفت كشفت وجهه شمته لمته حضنته قبلت عينيه جبينه يده صارخة يابن قلبي يا جنيني يا وليدي يا صغيري وانهارت مغشيا عليها.

افاقت كان اولادها وبناتها الآخرون حولها نادت بصوتها المخنوق يوسف. كانت العيون حبلى بالدموع وخيم الحزن على الجميع.

حانت لحظة الوداع شمته لمته ورأت عيونه تمضي نادته بني تريث حملوه بعيدا حيث لا لقاء آخر ألهمها الله الصبر.

مرت الأيام ثقيلة حزينة فلا طعم لأي شيء في الحياة فقط عداد الايام يدور. رأيتها يوما وقد كنت على سطح بيتنا المقابل لسطح بيتهم وكان قد مرَّ على وفاة ابنها حوالي شهرين ممسكة مكنسة لتنظف سطح البيت نظفت ثم وقفت على طرف السطح الاسمنتي حيث كان يقف يوسف ليدخن ويحتسي قهوته رأيتها تلم اعقاب سجائرة وتقبلها وانحنت بعد ذلك الى طرف السور الاسمنتي حيث مكان كأس قهوة يوسف لازال مطبوعا قبلته قبلت السور والسجائر ومسحت بطرف منديلها وجهها المبلل بالدموع واختفت عن ناظري كم انت غالٍ يا فلذة الكبد والقلب يا ولدي.

الكاتبة في سطور

- من مواليد المملكة العربية السعودية عام 1977.
- التحصيل الدراسي:

-حاصلة على درجة البكالوريس في اللغة الانجليزية -الأردن.

-حاصلة على درجة الماجستير في التربية- الأردن.

-حاصلة على دبلوم في التربية الخاصة.

- الوظائف التي شغلتها:

-مدرسة لمادة اللغة الانجليزية-الأردن.

-مدرسة في كليات المجتمع لمواد التربية-الأردن.

-منسقة للتربية الخاصة- قطر.





للنشر والتوزيع
الأردن - عمان

هاتف: 00962 6 5658253 / 00962 6 5658252
فاكس: 00962 6 5658254 ص.ب: 141781
البريد الإلكتروني: darosama@orange.jo
الموقع الإلكتروني: www.darosama.net